الفنون

رمبراندت

REMBRANDT

للدكتور أحمد موسى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

أما صور الجماعات ، فمنها ما هو فى منتهى الروعة والقوة . وصورة التشريح تمثل عدداً من فطاحل أطباء أمستردام ملتفين حول جثة منبسطة على منضدة التشريح ، والدكتور تلب باق عليهم شيئاً عن حلة تشريحية معينة أتم الفنان تصويرها سنة ١٦٣٢ ، وكانت فى دار جماعة الأطباء بأمستردام إلى أن أخذتها الجليرى للوكية فى الهاى .. وهى صورة تمثل ثمانية أشخاص ، سبعة منهم يستمعون لثامنهم وهو الدكتور تلب ، وتظهر على الوجوه إجمالاً ملامح الوقار العلمى والشوق إلى معرفة الجديد . أما الدكتور تلب فقد مثل الثبات والهدوء اللازمين للعالم ، ماسكا « جثتاً » بيمينه رافعاً به الشرايين ، ناظراً إلى زملائه ، متحفزاً للشرح ، مشيراً بيسراه إشارة العالم الواثق الذى تنبعث من عينيه نظرة محيطة بالدرس والفحص ؛ وتبدو على وجوه المستمعين ظاهرة الرغبة الاكيدة والاستغراب . انظر للواقف إلى جانب الدكتور تلب ، ممسكا صفحة ورق بيسراه ، ألا ترى وجهه ناطقاً بالحياة ؟ ثم انظر إلى التكوين المجموعى للرؤوس وقد بدت اللحى تامية تحت الذقن ، سنة العلماء فى ذلك الحين . لقد جمع رمبراندت بين بساطة مظهر العالم وبين جلالة العلم والوقار ، أما الجثة فلا يمكن إخراجها بأحسن مما أخرجه رمبراندت ، فهى مساوية الارادة تماماً ، ترى اليد مرتمية ارتماء متراخياً على المنضدة ، فضلاً عما ظهر على الوجه من علائم فقدان الحياة : فالفم مفتوح والعينان مغمضتان ، والجسم عار ، والذراع الايسر مشرح ظهرت منه الشرايين ممسوك بعضها بالجفت ، وهى فى مجموعها لا تدل فقط على القوة فى الاخراج ، بل تدل أيضاً على النزعة العظيمة التى نزع إليها رمبراندت ، فهو ميال إلى الجديد ، مدفوع بعامل الفن الى خدمة النواحى البعيدة التى لولا تفكيره فيها واتجاهه إليها لما شرع فى عمل شبيهاتها غيره من بعده

(التشريح)

وتكاد تكون أهم لوحاته عموماً صورة الحراسة الليلية وهى أكبرها مساحة ، إذ يبلغ طولها أربعة أمتار ونصف متر وعرضها ثلاثة أمتار ونصف أو يزيد قليلاً . وبالرغم من أن الصورة تظهر كما لو كانت تمثل فرقة من الجنود الامستراديين خارجين من مركزهم نهاراً ، نظراً لما وقع من أشعة النور على جانب من وجوههم ؛ إلا أن الظل والنور فى الصورة يعطى فكرة صحيحة عن قوة هذا العبقرى ولمسه جمال التصوير فى ظلام حالك يخترقه شعاع من النور ، فيزيد فى جلال التصوير بجوار الظلام الحالك . تمثل هذه اللوحة عشرين شخصاً لا ترى وجهاً يشابه الآخر ، ولكنه مع هذا جعل الجزء منسجم فى الكل ومتناسج فى المجموع ؛ فهو بتصويره على هذه الصنة أشبه بملحن موسيقى يوزع قطعته على آلات موسيقية عديدة ، جاعلاً

الانسجام الكلى متوافراً بينهما ليتم بذلك الخلق الفنى للنشود

صورها رمبراندت فى فترة طويلة وأتمها سنة ١٦٤٢ ، وهى مع اتساع مساحتها مليئة بالانشاء ، لا ترى فيها فراغ إصبع دون معنى أو دون عناية ، جعل الظل شديداً والنور شديداً hellpunkel فظهرت بألوانها الساحرة معجزة العصر

(الحراسة الليلية)

ومجموعته للصور الدينية كبيرة عظيمة من أهمها صورة (يوانس فى السجن) مؤرخة سنة ١٦٢٧ ومحفوظة باستوتجارت ، وسمسون ودليلة سنة ١٦٢٨ ببرلين ، والعائلة المقدسة سنة ١٦٣١ بميونيخ وتجهيز الصليب ١٦٣٣ بميونيخ أيضاً ، وإنزال المسيح من الصلب ١٦٣٣ ، وضحية إسحاق ١٦٣٥ بيطرسبرج ، وسيمون ينذر حياه ، وصعود المسيح ١٦٣٦ ، وعائلة توبياس ١٦٣٧ باللوفر ، وبعث المسيح ١٦٣٩ بميونيخ ، وبحث العذراء عن المأوى ١٦٤٠ فى جروسفنور هاوس بلندن ، والعائلة المقدسة باللوفر ، وتضحية مانوا مؤرخة ١٦٤١ بدرسدن ؛ وهى أيضاً تكمل تعريفنا بفنان لا يمضى يوم دون ذكر اسمه فى عالم الثقافة والفن . انظر إلى وجهى القديسة والقديس وما بدا عليهما من فرط الخشوع والاستسلام . أما الملابس بثناياها وتفاصيلها ، والدار والمدخل والسلم ، فكلها بجانب ما ظهر على تكوين الملاك الصاعد شيء ثانوى ؛ صوّره كما لو كان مسحوباً من أعلى بارادة خارقة ، وتراه وقد تجرد عن الارادة الذاتية صاعداً دون مقاومة

وصورة الزوجة الزانية أمام المسيح ١٦٤٤ ، والعائلة المقدسة ١٦٤٥ بيطرسبرج ، وابراهيم مضيفاً للملاك ١٦٤٥ بيطرسبرج أيضاً ، وسوزانا فى الحمام ١٦٤٧ ببرلين ، وداود وشاول يعزفان الهارب بأمستردام ، وأولاد يعقوب يحضرون لأبيهم القميص الملطخ بدم أخيهم يوسف بيطرسبرج ، وعودة الابن المفقود (وهذه أيضاً من أحسن لوحاته) بيطرسبرج

أما الصور الطبيعية ، والتى ظهر أنها لم تتجاوز الاثنتى عشرة ، فمن أهمها صورة الطاحونة وهى فى حيازة اللورد لانسدون ، وصورة الرعد فى متحف براونشوايج ، وصورة منظر جبلى على سفحه بعض خرائب وهى مؤرخة ١٥٦٠ بجاليرى كاسل ، وصورة جبال وقع عليها ضوء القمر فجعلها تؤثر على الناظر تأثيراً شعرياً غريباً

ومجموعته بالقلم الرصاص والريشة معظمها باللوفر وفينا ، ومتحف الصور اليدوية بميونيخ وبرلين ودرسدن ، وبالمتحف البريطانى ، ومتحف هارلم وامستردام غير ما لدى الأثرياء ؛ وهى كلها تبلغ حوالى المائتين وستين صورة تصلح لأن تكون وحدها رسالة علمية فنية لحلقة فى سلسلة تاريخ الفن العام

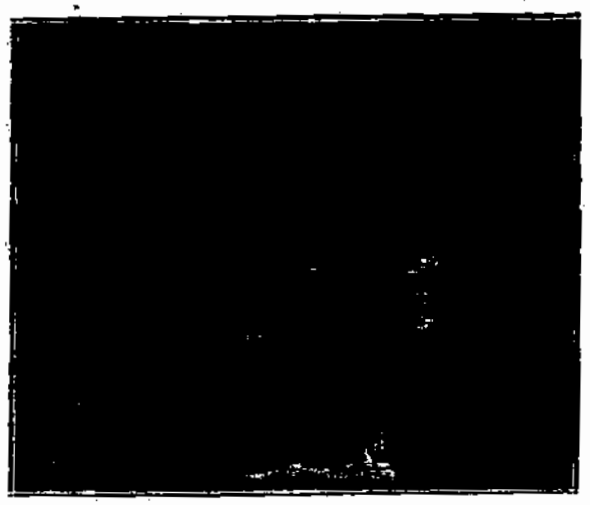

(تضحية مانوا)

ولا يحضرنى الآن ما أقوله عن رمبراندت الخالد سوى قول شيللر :

« إن الانتاج الفنى الحق لا ينبغى أن يحيط بما هو خارق للعادة من الناحية الاشتمالية البحت ، ولكنه ينبغى أن يشمل ما هو خارق لها من الناحية التكوينية ، التى بها يتأثر الانسان بكليته ؛ على حين لا يتأثر إلى هذا الحد بالناحية الانشائية التى لا يهم غالباً إلا الاخصاء ذوى الحاجة المحدودة »

أحمد موسى